

الأنساق الثقافية في خطبة الحجاج

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

المستخلص:

هدفت هذه الدراسة إلى تحليل خطاب الحجاج المشهور، حينما تولى العراق، وفق منهج النقد الثقافي، وقد تبين أن هذا الخطاب وليد أنساق ثقافية قبائلية، تتجلى في رفض الآخر، وتعظيم الأنا، وذكرية طاغية، وهجائية ملغية ومسترخصة للدماء، تتحكم في إنتاج هذا الخطاب، وتتربط لتتكامل في نسقية سلطوية عصبية طاغية، وذكرية فحولية، يستسلم لها الجمهور مسحورين بأنساقها التي آلت مضميراتهم التحتية، ويستجيبون خوفاً أو طمعاً، وقد حقق الخطاب غاياته حينذاك، واستقام لـ(أنا) الحجاج بعده أمر العراق.

الكلمات المفتاحية: نسق سلطوي، عصبية، ذكرية، فحولية، مضمير، النقد الثقافي.

المقدمة

هذا بحث في الأنساق الثقافية في خطبة الحجاج الشهيرة، حينما تولى العراق، وقدم إلى الكوفة، وهي دراسة تسعى إلى الكشف عن الأنساق المضمرّة التي تخاطب اللاوعي في الفرد والمجموع، فتزدهم إلى أنماط من السلوك في القول والفعل حباً أو كرهاً، وينقاد لها العقل في سكرة عن التدبر خوفاً أو أمناً.

- فما هي الأنساق التي استبطنتها خطبة الحجاج؟

- وكيف تجلى النسق القبلي؟

- وكيف تبدّى النسق السلطوي وأمّحى الآخر؟

- وأين ظهر النسق الجنوسي؟

لعل هذه الدراسة رغم تواضعها، وصغر حجمها-تمدنا بالإجابات عن هذه التساؤلات، هذا وسيتبين من خلال هذا البحث مدى تحكم الأنساق الجاهلية في النفسية الجمعية، وتلبسها أردية الدين، وسريانها في المجتمع حينذاك.

فُسم البحث إلى ثلاثة أجزاء :

- تناول الجزء الأول النسق القبلي، ومدى استحكامه في البيئة العربية، ومدى فاعليته في اللاوعي.

- وتناول الجزء الثاني النسق السلطوي المستبد، والمستكن في الأنا الطاغية.

- وتناول الجزء الثالث النسق الجنوسي؛ في هشاشة المرأة، وامتهانها في ظل هيمنة الذكورية على المجتمع العربي.

حيث اتبعت في دراستي هذه منهج النقد الثقافي؛ لتوافقه وموضوع الدراسة، وتأتي أهميتها في أنها تناولت نصًا خطابيًا مشهورًا، وفق منهج جديد في الدراسات الأدبية.

أولاً: النسق القبلي

عندما يشتهر نص فإنه يحوز على الإعجاب بما يوافق مضمرات النفوس، وقناعاتها العميقة، وظلالها السحيقة، والنصوص تعكس رغبات قائلها، ومتلقيها المعجبين؛ وذلك لا يكون بوعي متعمد، وإنما يأتي بانسجام وتناغم ودفء مع الأفكار الدفينة، والأحاسيس المرهفة في أعماق نفوس المتلقين.

وتزداد النصوص اقترابًا من الأفكار الدفينة والمشاعر العفوية كلما كانت ارتجالًا غير مصنوع بربيق العقل أو الأعراف، وليس أدق من تمثل اللاشعور النفسي الفردي والجمعي من الخطابة الارتجالية، التي تبعث حيثياتها ممعنة في ملامح الجمهور، فتمتزج بدفقات اللاوعي الذي يحمل الأعماق التكوينية، والخلفيات اللاشعورية، والأبعاد الأسطورية، فتنتثر بيانًا سائغًا للمستمعين.

وخطبة الحجاج تأتي في هذا السياق؛ لتتجلى من خلالها أنساق عديدة، لا تقولها الأنا عن ذاتها إلا متلبسة بالعقائد المألوفة أو البديهيات المعنقة.

قد تعمقت الأواصر القبلية في ظل التهديد المعاشي، وشكلت حامية لأفرادها، ولمواردها المعيشية في أماكن سيطرتها، وكانت القبيلة حصنًا منيعًا في وجه الطامعين بمصادرها الحياتية، في بيئة قاسية مخيفة لا ترحم، وسارت القبيلة إلى "نظام ثقافي طبيعي" (الغذامي، 2009م، ص100)، تعادل فيه القبيلة الدولة، ويعادل النسب فيها المواطنة والجنسية، فلا تجرؤ عشيرة أو قبيلة على أخرى، خاصة إذا كانت أقوى منها؛ لأنها ستنتال من العقوبات ما لا يوقفه قانون أو عدل أو رحمة، وإذا كان التجمع البشري في شعوب وقبائل سئة اجتماعية طبيعية، فمن غير الإنساني ولا الطبيعي ولا العقلاني أن تعتنق هذه التجمعات عقيدة الظلم والعدوان الوحشي، وتتأصل في مكوناتها الوجداني البدائي دون مقاومة من عقل أو رشد، حتى غدت "طبيعة فطرية لم تتغير كثيرا منذ زمن البدايات الأولى" (الغذامي، 2009م، ص31)؛ إذ من صفات القبيلة الفاضلة على حدّ معتقدتهم أن "تصير إلى الشر حالا من غير سؤال أو تردد، وهي التي تنصر أبناءها سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين، وهي التي تجزي الظلم بالظلم والإساءة، وليس للحلم أو العفو عندها نصيب، وهي التي

لا تخشى الله عندما تظلم أو تنتقم، بل تذهب في أقصى ذلك أقصى حدّ ممكن" (الوردي، 1994م، ص100).

وفي ظل هذه البديهيات القبلية يصبح النسق مكوناً أساسياً، "ينتج عن إحساس بالخوف يدفع للتحيز" (الغذامي، 2009م، ص9)، ويتكشف عن معنى استعلائي وإقصائي، يكون الظلم فيه أساساً للنظام المعيشي (الغذامي، 2009م، ص100)، وهو ما ظل سائراً في التاريخ القبلي، وما زال يروي سجلاً حافلاً من العنف والاضطهاد والاستعباد الاقتصادي واللامعقول الاجتماعي (الغذامي، 2009م، ص31)، وما زال يتحكم في اللاشعور القبلي على الرغم من توفر المدارس، والثقافات المختلفة، والتعاليم الدينية والأخلاقية، والأنظمة الاقتصادية الحديثة (الغذامي، 2009م، ص31).

وقف الحجاج على المنبر وسط الجميع متفرساً؛ ليعلن أول ما يعلن نسبه، وهو "ينظر يمينه ويسرة، حتى إذا غصّ المسجد بالناس، قال: يا أهل العراق، إني لأعرف قدر اجتماعكم، وهل اجتمعتم؟ فقال رجل: قد اجتمعنا أصلحك الله، فسكت هنيهة لا يتكلم، فقال الناس: ما يمنعه من الكلام إلا العي والحصر، فقام الحجاج فحسر لثامه، وقال: يا أهل العراق، أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود" (ابن الجوزي، د.ت، ج2، ص151).

البدء ب(أنا) ثم قوله الاسم إلى أن يصل ابن مسعود يعطي أهمية للنسب أكثر من الاسم الشخصي في بيئة قبلية، تقيم وزناً للقبيلة أكثر بكثير من الاسم الشخصي.

في أول الأمر استخف به الجمع قبل أن يسمعه، فانطلق يعرّف نفسه، ولم يقف في نسبه إلا عند من هو في السؤدد والأصل من ثقيف ابن مسعود، الذي يمتد بصلة القرى إلى عروة بن مسعود الصحابي الشهيد (زيادة، 1995م، ص25)، والذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: هذا مثله كمثل صاحب يس (ابن كثير، 2010م، ج4، ص888)، والذي كانت ترى فيه العرب أحد الرجلين العظيمين (ابن كثير، 2010م، ج4، ص184) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف، الآية 31)، كما كان والد الحجاج من سادة ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش معروفة (زيادة، 1995م، ص11)، وكان من كبار الملاك في مكة، وقد تزوج بالفارعة سيدة نساء ثقيف، وأكثرهن حلياً (زيادة، 1995م، ص13)، وطالما فخر الحجاج بأنه "ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص280).

فعندما يقدم الحجاج نفسه ممتدًا في نسبه إلى من يعرفه العرب إنما هو يستجيب لنسق قبلي مضمّر في نفسه وفي نفوس الحضور، حيث الارتباط بالأنا العليا للأسلاف (برجر، 2003م، ص161)، وهو بذلك يثبت أنه ابن أصول، وأن قيمة القبيلة تنغرس في جذور تفكيره، وجذور تفكير الحضور، مما يعطي مفعولاً قوياً في الخطاب (الغذامي، 2005م، ص138)، وأهمية كبيرة للخطيب فيهم، وهذا النسق القبلي المتأصل في وجدان العربي ما زال فاعلاً حتى اليوم، ولا يخفى أن دولا عربية تقوم على التقسيم القبلي، علاوة على كل قرية ومدينة، وما زالت العادة سارية في تقديم الشخص نفسه منتهياً إلى اسم العائلة، مريحا بذلك نفوس الحضور في سكون نسقهم المضمّر إلى الأصول.

ليس في النسب وحده تجلّى النسق القبلي في خطاب الحجاج، ولكن في النص كله، فهو عندما يستخدم التهديد والوعيد، والشتم والتفريع، يصدر عن نسق قبلي، يجعل الظلم قيمة أصيلة تعكس قيم الظلم القبلي؛ "يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللقى... يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق... وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السّلمة، ولأضربنكم ضرب غريبة الإبل" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص152). فإن بدأ بالنسب فقد نمّاه إلى سلطة شيخ القبيلة الذي ينفي الآخر، ويصعلكه، فيجعله كغريبة الإبل.

إن العبارات التي تطفح كرهاً وثأراً واسترخاصاً للدماء على طول الخطاب تصدر عن تمّاه مع النفس العربية القبلية، التي لا تقبل الآخر مستقلاً أو ندّاً إلا إذا غالبها وقهرها، ولا تقبل الآخر عن قوة لأنها تراه مُهدّداً لمصادر حياتها، فإن قبلته جاء ذلك عن ضعف وفقد الحيلة، مع التريص وتوقّر الغدر. إن هذه الذات المتلبسة بأردية (النحن) والمتعاطمة، لا يمكن أن يبقى فيها مكان للآخر (الغذامي، 2005م، ص127)؛ لذلك كان الخطاب مراغماً ومخضعاً، ليس فيه إلا الانقياد أو الموت.

ويلتقي في خطاب الحجاج القيمة القبلية مع القيمة البلاغية؛ فيجتمع سحران يُذبيان الآخر، ويلغيان وجوده، وتصير القيمة البلاغية مع القيمة القبلية فوق كل قيمة عقلية منطقية، لا تقدم سوى التعاضم الملغي للآخر، وينطلق لسان الشعر بالقبلية المتوحدة مع الأنا "أنا ابن جلا وطلاع الثنايا" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص151)، وبينما كان قد "تناول محمد بن عمير حصباء، وأراد أن يحصبه بها، قال: قاتله الله ما أغباه وأذمه... فلما تكلم الحجاج، جعلت الحصباء تنتثر من يده، وهو لا يعقل به" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص143)، إنها البلاغة القبلية التي تسحر النفوس فما تعقل عن حركاتها.

ويتكاثر القسم في الخطاب حاملاً الوعيد والترهيب، وخاتماً بالفعل الأكيد، صادراً عن عصبية حازمة، تغترف من ثقافة القتل والتأثر في نسقية قبلية، "إني والله لا أحلف إلا بررت، ولا أعد إلا وفيت، وإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك" (ابن الأثير، 2004م، ج6، ص152)، فأتاه عمير بن صابئ فقال: أيها الأمير إني شيخ كبير عليل، وهذا ابني أقوى على الغزو مني، قال: أحيروا ابنه عنه، فإن الحدث أحب إلينا من الشيخ، فلما ولي الرجل، قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير هذا الذي ركض عثمان برجله، وهو مقتول، فقال: ردوا الشيخ، فردوه، فقال: اضربوا عنقه" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص279).

أجاز الرخصة للشيخ المريض لعدم فائدته في الغزو، واكتفى بابنه الشاب، ثم ما لبث أن بطش به لقول قائل؛ ليثبت سطوة العصبية في تفاهة الآخر، واسترخاض دمه، وهو ما يُعجب حمية العربي القبلي؛ لأن هذا الحزم من أصول القيم القبلية التي تتبع من ضرورة وجودية في النهوض للغزو من أجل البقاء والسلامة، والتي لا تعرف الرحمة والعفو (الغدامي، 2005م، ص104).

وقد استنهبهم لغزو الخوارج طمعاً في العطاء، وأرعبهم من التخلف، فقال: "لئن تخلف رجل منكم بعد قبض عطائه لأضربن عنقه، ولأنتهبن ماله" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص153)، مشهد لا يختلف عن مشهد قبيلة تنهياً للغزو، فيها الطمع بالغنائم، وفيها القتل والنهب، والأمر لشيخ القبيلة المتعالي والمتعاضم، "وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله، لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وانتهبت ماله، وهدمت منزله" (صفوت، د.ت، ج2، ص277). وفي (محاربة عدوكم) قيمة قبلية واضحة، فما دام الخوارج عدواً لكم فينبغي الانطواء تحت الأنا لنحمي القبيلة وأهلها، ونغزو الآخر فنقتله ونهبه ونغنمه، ولم يكن أي اعتبار لرابطة الأخوة الإيمانية لا من هذا الطرف ولا من ذاك، في تجل واضح لأنساق قبلية متحولة لا يعصم الدم إلا بها، والتقاوس عن هذا الفعل خرق للنظام القبلي هذا، وتهديد له، يستوجب العقوبة المماثلة للعدو، وما دام الآخر عدواً عربياً فهو يفكر في لا شعوره كما يفكرون في لا شعورهم، وفي أناهم المتعاضمة والمستعلية التي لا تأمن الآخر، مالم تُخضعه وتستعبده، إنه فكر مفعم بثقافة القبيلة، فإن سكتكم عنه ونكصتم، فسيغزوكم ويستعبدكم ويغنمكم، ومن هنا كان النكوص خيانة كبرى للقبيلة، تستوجب أشد العقوبات الرادعة .

لم تكن مقولة الحسب والنسب إلا عبارة من العبارات الرمزية، التي تحمل في طياتها شحنة ثقافية قبلية عالية الكثافة، تحمل المفاخرة بالآباء والأجداد، وتتفي البعض الآخر لتتظاهر بالمجد والمنافسة والسلطة (الغلامي، 2009م، ص16)، وعندما يجتهد الإنسان ليثبت اختلافه عن أخيه الإنسان بقبيلة أو عرق فهو ينساق وراء بناء الأنا بإلغاء الآخر، وعندما كان الآخر في نظر الحجاج أهل العراق أهل الشقاق والنفاق، أدّبهم بالوعيد والتهديد، وبالترغيب والعطايا، كما تؤدّب القبيلة أبناءها، فلما استقاموا تحت الأنا المتحولة عن (النحن) صار الآخر بالنسبة لهم الخارجي، الذي ينبغي أن يُعدّوا العدة لغزوه قبل أن يغزوهم.

في هذا الخطاب لا نجد إلا روح الجاهلية القبلية تسيطر على النفوس، وتتسلل إلى مجتمعات المسلمين في أودية التحول، خاصة ونحن نرى الحجاج وأهل العراق والخوارج بجنودهم كلهم مسلمين، لم ينفكوا عن تصارع القبائل، والغزو والقتل والنهب، في تحولات العصبية القبلية الحزبية والمذهبية، مع أن الإسلام نبذ هذه الحميات العصبية، وأقام ميزان التقوى في الفضل والكرامة عند الله، وجعل الاختلاف تعاونًا وتآليفًا، إلا أن النسق القبلي الجاهلي في التنافي والتلاقي كان أقوى وأظهر.

ثانياً: النسق السلطوي

" بدأ الحجاج بالمسجد، فصعد المنبر، وهو مثلث بعمامة خز حمراء" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص143)، استخدم الحجاج علامات ليمرر معاني الأنا المتعاطمة والمرعبة للآخر، منها اللثام الأحمر، فاللثام يخفي المجهول الذي يُنبئ بفعل ما يشاء دون رقيب أو حسيب، هذا المجهول الذي يثير الرعب والفرع، الذي ينبغي أن يُتقى شره، والذي يبدو بلون أحمر يوحي بالدماء، وقد أختص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - كتيبته من الأنصار والمهاجرين يوم فتح مكة باللثام، فكان لا يبين منهم إلا الحق، مما أوحى بالقوة الكبيرة، وأثار الفرع، فهذا أبو سفيان يقول للعباس بعدما شاهدها: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً (ابن هشام، د.ت، ج4، ص404>)

فإذا ما انكشف لثام الحجاج أسفر عن لسان بليغ مرعب، وتهديد بالويل والثبور، فإما الخضوع وإما سفك الدماء، وحسر اللثام فنطق اللسان برعب البيان، ونهض قائلاً:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

(ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص278).

قد بدأ بالشعر الذي له دلالاته وحضوره القوي في البيئات القبلية، ليست بداية استلطاف أو غزل، وإنما بداية مشبعة بالفحولة والعظمة، ومتوعة بالرعب والفرع، فأنا ابن جلا، ليست أنا الحجاج فحسب، ولكنها (الأنا) الفحولية النسقية المتحولة عن (النحن) القبلية والمشاركة مع (أنا) أمير المؤمنين، خليفة الله على الأرض، منعكسة عن (الأنا) العليا العظمى، فإذا لزم الأمر وضع عمامة السلم والوقار فارغاً إلى الشجاعة، وخوض الغمار، ومستعداً للقتال.

لم يكتفِ الحجاج في أنه المتعاطمة وفحولته المتوعة الآخرين بعلامة اللثام، فأضاف إليها السنان، وقد صعد المنبر مثلثاً متنكباً قوسه (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص278) و(ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص151)، ثم أعقب اللثام والسنان باللسان القارص الحاد، المتعود بالدماء والصغار، فقال: "وإني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، هذا أوانُ الحرب (الشّد) فاشتدي زيمٌ قد لفها الليلُ بسواقٍ حُطَمَ"

((ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص152)).

فبعد اللثام الذي يوحى بالأنا المطلقة العظيمة، والقوس الذي يحمل دلالة نسقية فحولية ترتبط بالأنا ارتباطاً عضوياً، يأتي اللسان بقوته السحرية، يردف بالشعر، وما للشعر من ولايته على النفوس مُحَمَّلاً بالتهديد والوعيد، في تجسيد ثلاثي الأبعاد للسلطة التي لا تعرف الرحمة، فيجعل الجمع ينهزمون بسحره المرعب، ويستسلمون تحت أنه السلطوي، استجابة للخوف والطمع إذا لم تكن اقتناعاً عن دواعي الفكر والعقل.

قد مثل خطاب الحجاج نمطية الشخصية العربية القبلية، شخصية الفرد المتوحد، فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر (الغدامي، 2005م ص94)، والنموذج الثقافي السلطوي الطاغي الذي يخضع الجماهير مهما كانت متباينة ومتمردة؛ لأنه يحاكي الأنا العليا، ويجسد الحق المطلق الذي ينبغي أن يصير إليه الآخرون أو يقتلون، فهذه الأنا المتعاطمة والمتحدة مع أنا أمير المؤمنين، "لقد فُرِزْتُ عن نكاء، وفُتِّسْتُ عن تجربة، وأجريت من الغاية، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، فرماكم بي" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص152)، إن الحجاج يرى ذاته الأمر والأشد، وفي مرّها وشدتها تتفوق على الآخرين، بل وتعظم على الجمهور أهل العراق لدرجة أن أمير المؤمنين لم يرمهم بها، بله رماهم به، وسيغال بهم فيكسرهم، ويجعل عيشهم مرّاً، إذا لم يخضعوا لأمره، ولم

يستسلموا لسلطته الصادرة عن سلطة أمير المؤمنين خليفة الأنا العليا، وهذا النسق لا تتفك عنه أي نفس أطلقت لذاتها العظمة، وصادفت سيادة في الواقع إذا لم تلجم نوازعها، وتحدّ من غرورها، ففي داخل الذات المتعاطمة في كل كائن بشريّ حلمٌ يرودها أن تكون إلهاً، لو أمكنها ذلك (الغذامي، 2009م، ص17).

ويستشهد الحجاج بآية من كتاب الله يُشرعن فعله وفعل الخليفة فيهم، ويصل أنه المتحدة بالأنا العليا، "فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون... أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده" (صفوت، د.ت، ج2، ص 276-277).

في هذا الخطاب نسق سلطوي يأخذ شرعيته من الله سبحانه؛ ليمارس سلوكيات الطغيان والتجبر، وهو على حق لأنه تشرعن باسم الدين، كذلك شيخ القبيلة لا يُعصى، وسلطته نافذة، وشرعيته مستمدة من القبيلة، وحمايتها من الهلاك يجعله على حق دائماً، حتى لو كان ظالماً سقاً بحق غيره، كذلك أمير المؤمنين، يتحول في سلطته لشيخ قبيلة، يطاع في قراراته، حتى لو لم تكن عادلة، وهو على الحق دائماً، والخارج عن طاعته مستحق النفي والقتل، وأما إن انساق تحت هذه الأنا المعظمة، ذات الجلال فينعم بالأمن، ويطيع في الغزو، ويغتم مع الغانمين، وبذلك تحمي القبيلة أفرادها، وتوفر أسباب العيش في قسوة البيئة، وتريص الأعداء، كذلك أمير المؤمنين يأمر بالأعطيات، ويدعو للغزو، "وإنَّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم" (صفوت، د.ت، ج2، ص277)، مبرراً أمره بأنه "لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جيء فيء، ولا قوتل عدو، ولعلّلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص144)، فهذه المبررات للغزو هي نفسها في نظام القبيلة؛ الغنائم وحماية حدود القبيلة وربوعها من الطامعين.

ومع أن الإسلام أقام رابطة الأخوة الإيمانية بديلاً عن رابطة الدم والقبيلة، وحرّم قتل النفس عامة بغير نفس، وعظم قتل المؤمن، وتوعد بأشدّ العذاب، فقال سبحانه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، الآية32)، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، الآية93)، ومع شدة هذا الوضوح في النص القرآني المنافي لقيم القبيلة ونظامها، إلا أن النسق القبلي القائم على القتل والغزو طغى على البيئة العربية، مرتدياً أردية الدين، وظل يحرك السلوك بلا وعي أو شعور، وظلت قدرة النسق على التحايل على العقول

ليفرض قدرته التأويلية على النصوص، ويجعلها تتكلم بمراده (الغذامي، 2009م، ص102)، فتتحول الأخوة الإيمانية إلى عصبية قبلية، متحولة إلى مذهب أو حزب، ويتحول الغزو والقتل والنهب الذي كان يستهدف القبائل الأخرى إلى أصحاب المذاهب أو الحزب، وهكذا جرت تحولات النسق السلطوي في خطاب الحجاج.

ثالثاً: النسق الجنوسي

الثقافة العربية القبلية تهمش المرأة، وتلقي بها في الظل، وتعتبر شؤون المجتمع شأنًا ذكوريًا، وخطاب الحجاج يتساق مع ذلك، فلا نجد ذكرًا للمرأة عمومًا، وكأن شؤون السياسة والحرب وولاية الأمر حكر على الرجال، وأن المجتمع في وجوده ذكوري فقط، وإذا أتى ذكر المرأة فلا يأتي إلا مُعَابًا مُنْقَصًا، وقدرها أن تُمَتَّع الرجل مع الدناءة والضعف، ويسكن إليها مع الخزي والعار، وهي بموت الفحل أرملة ضعيفة، يُتَوَقَّع انفلات شرفها؛ لأنها مجرد جسد شبق (الغذامي، 2006م، ص29-32).

وهي إن ساست ورعت أساءت، وما أدبت، وفي هذه التناقضات الذكورية تسكن إلى الأنثى وتستعديها، وتجتمع إليها وتقضيها، وتعاشرها وتلغيها، وتعيش الأنثى في المجتمع الذكوري هذا مبخوسة الحقوق، ومستتلبة الشخصية، حتى إنها رغم حملها الأجنة تسعة شهور، ورعاية أطفالها سنين طويلة تُسَلَب حق النسب، بله النسب إليها معيب؛ فلا يكون النسب إلا من جهة الأب، متجاهلين الرحم الذي يلد الحياة، ويستودع الجنين، والحضن الذي يغذي الوليد، حتى يحيا ويقوى في كنف الأمومة الرؤوم، فالأنا الذكورية العربية تنسب الأولاد إليها، وترتبط بأسمائهم ليمدوها بأواصر الخلود (الغذامي، 2006م، ص29)، ويرون أن الأولاد إن تركوا لتربية المرأة ساءت آدابهم، وفي ذلك يقول المعري:

إذا بلغ الوليد لديك عشرًا فلا يدخل على الحرِّم الوليدُ

فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت وإن رُزقت حجىً بليدُ

ألا إن النساء حبالٌ غيٌّ بهنَّ يُضَيِّعُ الشرف التليدُ

(المعري، د.ت، ج1، ص279).

ومع أن الموقف موقف صراع وخصام وحرب لا تبين فيه الأنثى، كما قال تعالى على ألسنة العرب وقتذاك: ﴿أَوَمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (سورة الزخرف، الآية18)، إلا أنها ظهرت في قلقة لسان الحجاج، وهو يعيب على الجمع من الرجال حينما قال: "يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ عليهم، بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم،

فلم يقل أحد شيئاً، فقال الحجاج: اسكت يا غلام، هذا أدب ابن نهيّة، والله لأدبهم غير هذا الأدب، أو ليستقيمنّ، اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم، لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام" (ابن عبد ربه، د.ت، ج5، ص279)، وفي روايات أخريات، هذا أدب ابن نهبة، وابن سمية، وابن أذينة، وابن أبيه (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص75).

إن الحجاج إذ يقترب في خطابه من المرأة كان مشحوناً بالتحييلات النسقية الجنوسية، فسوء الأدب من تربية المرأة، وسيئ الأدب ابن الأنثى في تصوراتها المنتقصة... نهية أو سمية أو أذينة... وهو تنسيب يقدح بالمرأة، وكنية تدمها، وقد اكتسب الابن من أمه سوء الأدب والتربية.

وليس ببعيد عن الحجاج إسقاط نسب الابن عن الأم، ومناظرته مع يحيى بن يعمر مشهورة في ذلك (ابن خلكان، د.ت، ج6، ص174)، وقد احتج بقول الشاعر:

بنونا بنو أبائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباة

(الهلالي، 2006م، ج1، ص303) و(ابن قيم الجوزية، 1997م، ص386-387).

فإذا كنى الحجاج بأمه إنما قصد ذلك لسوء أدبه، محملاً المرأة وزر ذلك، بينما جرت العادة الذكورية العربية أن "الولد يتبع أباه في الدين والنسب" (الحداد، د.ت، ص30)، وفي رواية أخرى، قال الحجاج: "هذا أدب ابن أبيه" (ابن الجوزي، د.ت، ج6، ص154)، وهذا تعريض واضح يشف عن جهل الأب؛ بما يوحي بأنه ابن زنى، وأن أمه فاجرة أو أمة، وفي هذه الرواية "ابن أبيه" والأخرى "ابن سمية" يلتقي هذا التنسيب الذي عُرف وشاع عن زياد ابن أبيه، أو ابن سمية، مجهول الأب، وقد كانت أمه بغياً يأتيها الرجال (الذهبي، 2004م، ج1، ص1732)، فالذي لا يتأدب بالطاعة لأمر المؤمنين فهو من جرثومة الشيطان، ومما يشين المرأة بالعار، ويظل الهجاء سيد الخطاب لدى الحجاج، لا يسلم منه الرجال كما النساء، وهذا الفعل الهجائي لم يتوار عن النسق الثقافي العربي، بل تحوّل إلى نسق مضمر ينطوي عليه كل خطاب، فهو إنما يكرس الأنا المتعاطمة في موقفها الناسخ للآخر، ويصير الهجاء علامة ثقافية لازمة، تظهر آثارها في السلوكيات، والتعاملات الاجتماعية، وحتى الفكرية (الغذامي، 2005م، ص165)، ويصبح الآخر مستحقاً لأشد أنواع الذم، وتتعاظم الأنا في عدوانية ضد الخصم، تقوم على رغبة التدمير (الغذامي، 2005م، ص167)، وإذ لم يكتف الحجاج بالوعيد والتنميط للرجال حتى وجدناه يهجم على النساء المعزولات عن هذا المضمار أصلاً، فيُلحقهنّ بالعار، ويلمهنّ بالشنار.

وعندما يتوعد الحجاج الرجال المخالفين بالقتل فإنه يقول: "والله لتستقيمن على الحق، أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامي، والولدان يتامى" (ابن الأثير، 2004م، ج4، ص144)، وهو يقرن بين الولدان والنساء دون فحولة الرجال في الضعف والطيش، ويفزعهم من ترك زوجاتهم أيامي؛ لما في مضمرة ثقافتهم من أن المرأة من غير محلٍ "خؤون، تخون سيدها وتهتك عرضه" (الغذامي، 2006م، ص61)، سواء أكان للحاجة والضعف الذي يخضعها لتأكل بعرضها، أم للشبق والتشهي الذي يدفعها لانتهاك شرفها.

إن المرأة قد استحضرت في خطاب الحجاج على نزرة، فقد حضرت ناقصة مُشانة وضعيفة بلا أخلاق، لا يليق بها إلا هجر مجامع الفحول، أو تهمة الفجور، وإذا فقدت فحلها صارت أرملة هشة، لا تجد ارتواء لشهوتها فتعاني الأمرين، وتكون عندئذ مهددة في حياتها، ومهددة في عفتها، وهو بذلك يكشف عن شماتة مضمرة في المرأة، وعيب لا يسان بلا رجل، ولا هي تقدر على العيش الكريم إلا بعون الذكر، ولا يستقيم شرفها من الانفعال المتفلت، والهيام المنكبت إلا بالفحل البعل، وقتله عقاب للمرأة ونكاية بها، يُحيلها لضياح في مجتمع ذكوري يضطهد المرأة ويفترسها.

الخلاصة:

قد كشف الخطاب عن أنساق فاعلة في البيئة العربية وقتذاك، تمثلت في النسق السلطوي الذي يستبد بالآخر، ويعاظم الأنا في توحد مع الأنا العليا المقدسة، والمحجوبة في السماء، ويُخضع الجمهور بالجبروت والوعيد، وبالهجاء الشديد، وباستباحة الدماء والأموال في تصورات قبلية، لم ينفك المستمعون عن مشاهدتها من حروب الغزو والنهب وانتهاك الحرمات.

قد بدأ الحجاج خطابه مذ صعد المنبر باللثام متكباً قوسه، ثم تجلى باللسان البليغ القارص المमित لكل مخالف، صادراً عن قوة القبيلة المتحولة في الحزب الأموي الحاكم، مطلق اليد في البطش والتنكيل، كشيخ قبيلة تحدّ قيم الأنا في وجودها ليس غير، فمن خرج عن الخضوع فقد أساء الأدب، كصعلوك القبيلة، الذي لم تؤدبه أمه، متوعده بأدب الويل والثبور.

وإذ يهجو الحجاج الآخر ويمحوه، يمدح ذاته وينتفش بأناه عاكساً تشكيلاً ساحراً في أذهان الحضور، يدفعهم للسمع والطاعة فراراً من لازم التهديد، وانفكاكاً عن مُستقَب الهجاء، إلى التأدب والانقياد.

ولم ينسَ الحجاج توظيف نصوص الدين، سواء في الهيمنة والاستبداد، أم في الذم والعقاب؛ لتتساوق مع القيم القبلية الجاهلية، التي تكشف عن قدرة الأنساق المضمرة على استنطاق الآيات المقدسة لما تريد وتهوى،

وقدرتها على التلبس بأردية الدين وغيره، فنُشِرَ عن الأنا الطاغية المستبدة، وتلغي الآخر المخالف، وتحلّ دمه وماله، وتُشيطن الأنثى وتُقصيها.

قائمة المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد: الكامل في التاريخ، تحقيق: خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، 2004م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عطا وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد: العقد الفريد، ط1، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن قيم الجوزية: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1997م.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط1، دار الفجر للتراث، القاهرة، مصر 2010م.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- برجر، أرثر أيزا: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ط1، ترجمة: وفاء إبراهيم وزميلها، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م.
- الحداد، الطاهر: امرأتنا في الشريعة والمجتمع، د.ت.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004م.
- زيادة، محمود: الحجاج بن يوسف الثقفي المقتدر عليه، ط1، دار السلام، مصر، 1995م.
- صفوت، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط1، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر.
- الغزامي، عبد الله: القبيلة والقبائلية أو هوايات ما بعد الحداثة، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م.
- الغزامي، عبد الله: المرأة واللغة، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
- الغزامي، عبد الله: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2005م.
- القرآن الكريم.
- المعري، أبو العلاء: اللزوميات، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان.
- الهلالي، محمد تقي الدين: سبيل الرشاد في هدي خير العباد، ط1، الدار الأموية، عمان، الأردن، 2006م.